مجموعة سيرة الرسول ﷺ

بإشراف

محمد أحمد برانق

(١٣)

انتصار الإسلام

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج م غ

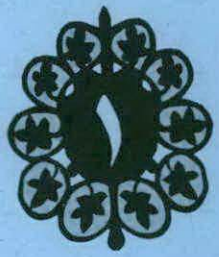

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ).

وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَقُولُ: «أَنَا أَخَافُ يَهُودَ»!

عَادَ مُحَمَّدٌ مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ ظَافِرًا مُنْتَصِرًا عَلَى قُرَيْشٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى الْيَهُودَ وَيَخَافُ بَأْسَهُمْ وَغَدْرَهُمْ وَعَدَاوَتَهُمْ، وَكَانَ لِذَلِكَ يَقُولُ: أَنَا أَخَافُ بَنِي قَيْنُقَاعَ!

وَبَنُو قَيْنُقَاعَ هُمْ إِحْدَى طَوَائِفِ الْيَهُودِ، وَأَشَدُّهُمْ مَكْرًا وَخِدَاعًا، وَكَانُوا

يُجَاوِرُونَ النَّبِىَّ بِالْمَدِينَةِ ، وَيُقِيمُونَ بِمَسَاكِنَ لَهُمْ فِيهَا سُوقُ صِيَاغَةٍ وَتِجَارَةٍ .

وَقَدْ تَلَقَّى الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ خَبَرَ انْتِصَارِ النَّبِىِّ بِبَدْرٍ عَلَى أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِن قُرَيْشٍ بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَتَلَقَّى الْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ الْخَبَرَ بِالْحُزْنِ وَالْكَمَدِ وَالْغَيْظِ الشَّدِيدِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَمَا وَصَلَهُمْ نَبَأُ هَذَا الانْتِصَارِ أَبَوْا أَنْ يُصَدِّقُوهُ تَهْوِينًا مِنْ شِدَّةِ وَقْعِهِ عَلَى نُفُوسِهِمْ ، وَتَخْفِيفًا مِنْ حَزِّ الأَلَمِ فِى قُلُوبِهِمْ ، وَبِرَغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ رَأَوْا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ رَسُولَىْ مُحَمَّدٍ اللَّذَيْنِ بَعَثَ بِهِمَا قَبْلَ مَجِيئِهِ يُبَشِّرَانِ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِالنَّصْرِ ، وَبِرَغْمِ مَا سَمِعُوهُ وَهُمَا يُعَدِّدَانِ أَسْمَاءَ الْقَتْلَى مِن أَشْرَافِ قُرَيْشٍ - ظَلُّوا يُحَاجُّونَ وَيُكَذِّبُونَ وَيَقُولُونَ إِذْ رَأَوْا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ يَرْكَبُ نَاقَةَ الرَّسُولِ الْقُصْوَى : إِنَّمَا مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ، أَوْ هُزِمَ الْمُسْلِمُونَ ! وَإِلاَّ فَمَا بَالُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ قَدْ أَتَى بِالْقُصْوَى ؟!

وَلَمَّا أَتَى الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ وَمَعَهُ مِنْ أُسَارَى قُرَيْشٍ مَا دَعَمَ قَوْلَ الْبَشِيرَيْنِ بِالنَّصْرِ كَانَ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ هَمٍّ وَمَا انْتَابَهُمْ مِنْ غَيْظٍ ، أَشَدَّ مَا يَكُونُ لَذْعًا فِى

قُلُوبِهِمْ ، وَمَرَارَةً فِى نُفُوسِهِمْ .

وَلَمْ يَجِدْ مُنَافِقُو الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْدَ ذَلِكَ بُدًّا - وَقَدْ رَأَوا الإِسْلاَمَ يَنْتَصِرُ وَيَسْطَعُ نُورُهُ - مِنْ أَنْ يَدْخُلُوا فِى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ .

أَمَّا يَهُودُ بَنِى قَيْنُقَاعَ فَإِنَّهُمْ أَظْهَرُوا الْعَدَاوَةَ جِهَارًا ، وَخَانُوا عَهْدَ النَّبِىِّ الَّذِى قَطَعَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ مَجِيئِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَنْ يُوَادِعُوهُ وَيُسَالِمُوهُ .

فَهَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ حَالَفَ ، وَوَادَعَ ، وَسَمَا بِدِينِهِ ، وَقَارَبَ الإِسْلاَمُ أَنْ يُضِىءَ جَمِيعَ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ هَا هُوَ ذَا يَصُولُ وَيَجُولُ بِسِلاَحِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُعْتَدِينَ فَيَنْصُرُهُ اللهُ ، فَتَقَعُ الرَّهْبَةُ فِى قُلُوبِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَيَسُودُ الْخَوْفُ سُكَّانَ الْجَزِيرَةِ .

وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْيَهُودُ أَنْ يَكْبِتُوا شُعُورَهُمُ الْعِدَائِى إِزَاءَ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ مِمَّا كَبَتُوهُ ، فَاشْتَعَلَتْ فِى جَوَانِبِهِمْ نَارُ الْغَيْرَةِ ، وَأَسْفَرُوا عَنْ عَدَائِهِمْ وَخَلَعُوا نِقَابَ رِيَائِهِمْ فَحَرَّضُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَآذَوْهُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ .

وَكَانَ مِنَ الْيَهُودِ وَمِنْ مُنَافِقِى الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مَنْ كَانَ يَهْجُو

الْمُسْلِمِينَ ، وَيَعِيبُ الإِسْلاَمَ وَيَقُولُ الشِّعْرَ لِلتَّعْرِيضِ بِهِ وَيُنْشِدُهُ لِلتَّحْرِيضِ عَلَى إِيذَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ هَؤُلاَءِ عَدَاوَةً وَضَرَاوَةً أَبُو عَفَكٍ وَكَعْبُ بْنُ أَشْرَفَ الْيَهُودِيَّانِ .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَرَوْنَ مَا يَرَوْنَ مِنْ هَؤُلاَءِ دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَفْعَلُوا إِزَاءَهُمْ شَيْئًا عَلَى شِدَّةِ مَا فِى نُفُوسِهِمْ مِنْ أَلَمٍ وَغَضَبٍ .

فَلَمَّا خَرَجَ النَّبِىُّ مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِغَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَعَادُوا مِنْهَا مُنْتَصِرِينَ ، كَانَ لِهَذَا النَّصْرِ فِى نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ أَثَرٌ مَعْنَوِىٌّ طَيِّبٌ ؛ جَعَلَهُمْ لاَ يَهَابُونَ أَنْ يَرُدُّوا غَائِلَةَ مَنْ يُؤْذِى رَسُولَ اللهِ ، وَيَعِيبُ الإِسْلاَمَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَّتِ الْمُنَاوَشَاتُ قَائِمَةً بَيْنَ يَهُودِ بَنِى قَيْنُقَاعَ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَتَتْ ذَاتَ يَوْمٍ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الأَنْصَارِ فَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ مِنَ الْيَهُودِ فِى شَأْنِ حِلْيَةٍ لَهَا ؛ فَجَعَلَ الصَّائِغُ وَمَنْ يَجْلِسُ مَعَهُ مِنَ الْيَهُودِ يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا ، فَرَفَضَتْ ، فَمَا كَانَ مِنْ أَحَدِهِمْ إِلاَّ أَنْ أَتَى مِنْ خَلْفِهَا فِى سِرٍّ مِنْهَا فَشَبَكَ طَرَفَ ثَوْبِهَا بِشَوْكَةٍ إِلَى ظَهْرِهَا ، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَ مِنْ جِسْمِهَا مَا كَانَ يَسْتُرُهُ

الثَّوْبُ ، فَضَحِكَ الرِّجَالُ بِهَا ، فَضَاحَتِ الْمَرْأَةُ وَصَرَخَتْ وَبَكَتْ ، فَأَتَى عَلَى صِيَاحِهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَمَا مَلَكَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ حِينَ أَدْرَكَ مَا حَصَلَ إِلَّا أَنِ انْقَضَّ عَلَى الصَّائِغِ فَصَرَعَهُ ؛ فَتَكَالَبَ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ . وَبِذٰلِكَ وَبِغَيْرِهِ خُرِقَ الحِلْفُ ، وَنُقِضَ الْعَهْدُ الَّذِى كَانَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ .

وَعَلَى هٰذَا جَمَعَ النَّبِىُّ الْيَهُودَ فِى سُوقِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ نَاصِحًا :
يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ؛ فَوَاللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ ؛ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُوقِعَ اللهُ بِكُمْ مِثْلَ وَقْعَةِ قُرَيْشٍ .

وَلٰكِنَّ الْيَهُودَ طَغَوْا وَاسْتَكْبَرُوا وَأَجَابُوا الرَّسُولَ :
يَا مُحَمَّدُ ، لاَ يَغُرَّنَّكَ مَنْ لَقِيتَ ، إِنَّكَ قَهَرْتَ قَوْمًا أَغْمَارًا ، وَإِنَّا وَاللهِ أَصْحَابُ الْحَرْبِ ، وَلَئِنْ قَاتَلْتَنَا لَتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ لَمْ تُقَاتِلْ مِثْلَنَا .

وَهٰكَذَا أَسْفَرَتِ الْعَدَاوَةُ ، وَنُقِضَ الْعَهْدُ صُرَاحًا ، وَهٰكَذَا اسْتَحْكَمَتِ

الْمُنَاوَشَاتُ وَالْمُشَاحَنَاتُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ حَتَّى اسْتَقَرَّ عَزْمُ مُحَمَّدٍ عَلَى قِتَالِهِمْ .

وَأَمَرَ النَّبِيُّ بِحِصَارِ الْيَهُودِ فَحُوصِرُوا بِحُصُونِهِمْ وَدُورِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا لاَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَلاَ يَدْخُلُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ بِطَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ ، حَتَّى ضَاقُوا بِحَالِهِمْ ذَرْعًا ، فَاسْتَسْلَمُوا لِلرَّسُولِ وَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ ، حِينَئِذٍ أَشَارَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى النَّبِيِّ بِقَتْلِهِمْ ، وَلَكِنَّ حَلِيفَهُمْ وَحَلِيفَ الْمُسْلِمِينَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ تَقَدَّمَ إِلَى النَّبِيِّ يَشْفَعُ فِيهِمْ وَيَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ ؛ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ .

وَلَمْ يَرُدَّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ جَوَابًا لِشِدَّةِ غَضَبِهِ عَلَى يَهُودَ عَامَّةً وَبَنِي قَيْنُقَاعَ خَاصَّةً بِمَا فَعَلُوا بِالْمُسْلِمِينَ .

فَعَادَ عَبْدُ اللهِ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ ؛ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ .

فَأَعْرَضَ الرَّسُولُ عَنْهُ ، وَلَكِنَّ ابْنَ أُبَيٍّ لَمْ يَسْكُتْ وَلَمْ يَيْأَسْ ، فَعَادَ يَشْفَعُ فِيهِمْ لَدَى النَّبِيِّ وَهُوَ يَقُولُ :

يَا مُحَمَّدُ ، أَرْبَعُمِائَةِ حَاسِرٍ ، وَثَلاَثُمِائَةِ دَارِعٍ ، قَدْ مَنَعُونِي مِنَ الأَحْمَرِ

وَالأَسْوَدِ ، تَحْشُدُهُمْ فِى غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ ، إِنِّى وَاللهِ امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ . عِنْدَئِذٍ قَالَ الرَّسُولُ : هُمْ لَكَ !

كَانَ جَوَابُ الرَّسُولِ جَوَابًا لَمْ يَكُنْ لِيَتَوَقَّعَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَمَا كَانَ لِيَبْلُغَ إِلَى ظَنِّهِمْ أَنَّ مُحَمَّدًا سَيُبْقِى عَلَى رِقَابِ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ يُبْقِيهِمْ إِلَى جِوَارِهِمْ فَيُعِيدُوا مَعَهُمْ سِيرَتَهُمُ الأُولَى !

وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا لَبِثُوا أَنْ سُرِّىَ عَنْهُمْ ، وَتَنَفَّسُوا الصُّعَدَاءَ حِينَ أَعْقَبَ عَفْوَ النَّبِىِّ أَمْرٌ مِنْهُ لِبَنِى قَيْنُقَاعَ بِمُغَادَرَةِ الْمَدِينَةِ فِى مُدَّةٍ أَقْصَاهَا ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ ، عَلَى أَلاَّ يَأْخُذُوا مَعَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ إِلاَّ مَا يَسْمَحُ لَهُمْ بِأَخْذِهِ ، وَوَكَّلَ النَّبِىُّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ الَّذِى كَانَ حَلِيفًا لِبَنِى قَيْنُقَاعَ ثُمَّ بَرِئَ مِنْ حِلْفِهِمْ أَنْ يَكُونَ مُشْرِفًا عَلَى تَرْحِيلِهِمْ وَتَنْفِيذِ أَمْرِهِ فِيهِمْ .

وَأَغْرَى بَنُو قَيْنُقَاعَ مَا رَأَوْا مِنْ حِلْمِ مُحَمَّدٍ مَعَهُمْ عَلَى أَنْ يَطْلُبُوا مِنَ ابْنِ الصَّامِتِ أَنْ يَعْمَلَ عَلَى إِمْهَالِهِمْ مُهْلَةً أُخْرَى فَوْقَ مَا أَمْهَلَهُمُ النَّبِىُّ لِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَلَكِنَّ عُبَادَةَ رَفَضَ مِنْهُمْ كُلَّ الْتِمَاسٍ وَكُلَّ ضَرَاعَةٍ وَهُوَ يَقُولُ :

لاَ نُمْهِلُكُمْ فَوْقَ مَا قَرَّرَ النَّبِىُّ سَاعَةً وَاحِدَةً !

أَمَّا ابْنُ أُبَىٍّ فَقَدْ أَغْرَاهُ أَيْضًا مَا رَأَى مِنْ حِلْمِ مُحَمَّدٍ فِى أَنْ تحدِّثْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَقْصِدَ إِلَيْهِ ثَانِيَةً يَسْأَلُهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ بَنِى قَيْنُقَاعَ بِإِبْقَائِهِمْ فِى مُقَامِهِمْ ، وَلَكِنَّ أَصْحَابَ النَّبِىِّ وَقَدْ عَرَفُوا غَرَضَهُ الَّذِى أَتَى مِنْ أَجْلِهِ - دَفَعُوهُ عَنْ بَابِ الرَّسُولِ فَدَافَعَهُمْ وَتَشَاجَرَ مَعَهُمْ فَشُجَّ رَأْسُهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْيَهُودَ مَا كَانَ مِنَ ابْنِ أُبَىٍّ وَمَا أَصَابَهُ قَالُوا : وَاللهِ لاَ نُقِيمُ بِبَلَدٍ تُشَجُّ فِيهِ يَابْنَ أُبَىٍّ وَلاَ نَسْتَطِيعُ عَنْكَ دِفَاعًا . وَعَلَى ذَلِكَ جَلَوْا عَنِ الْمَدِينَةِ بِرُفْقَةِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلاَدِهِمْ ، وَبِمَا سُمِحَ لَهُمْ بِحَمْلِهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ حَتَّى نَزَلُوا بِأَذْرِعَاتٍ عَلَى حُدُودِ الشَّامِ .

وَتَرَكَ الْيَهُودُ مِنْ وَرَائِهِمْ دُورَهُمْ وَحُصُونَهُمْ وَسِلاَحَهُمْ وَأَدَوَاتِ صِيَاغَتِهِمْ فَكَانَتْ غَنِيمَةً طَيِّبَةً لِلْمُسْلِمِينَ .

وَدَلَّ جَلاَءُ الْيَهُودِ عَنِ الْمَدِينَةِ إِطَاعَةً لأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا صَارَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَأْسٍ وَمَا أَصْبَحَ لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، فَخَافَهُمُ الْيَهُودُ الْمُتَاخِمُونَ

لِلْمَدِينَةِ مِنْ بَنِى قُرَيظَةَ وَبَنِى النَّضِير ، وَخَشِيَتْهُمْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ الْمُتَاخِرَةُ بِأَرْضِ الْجَزِيرَةِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا قَدْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُه أَنْ يَغْزُوَ مُحَمَّدًا حَتَّى تَضْعُفَ قُوَّتُهُ وَتَذْهَبَ هَيْبَتُهُ ، وَلَكِنَّهَا مَا تَكَادُ تَتَجَمَّعُ وَتَعْلَمُ بِخُرُوجِ مُحَمَّدٍ إِلَيْهَا حَتَّى يَفِرَّ رِجَالُهَا فِى مَتَاوِهِ الصَّحْرَاءِ ، وَيَتَفَرَّقُوا فِى شِعَابِ الْجِبَالِ .

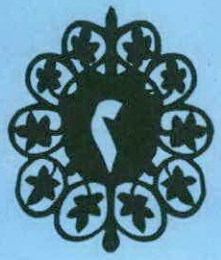

كَانَ لاَ يَزَالُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ طُغَاةِ الْيَهُودِ رَجُلٌ يَتِيهُ بِجَمَالِهِ وَمَالِهِ وَبَأْسِهِ وَقُوَّتِهِ ، هَذَا الرَّجُلُ اسْمُهُ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ .

كَانَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ حَلِيفًا لِبَنِى قُرَيْظَةَ إِحْدَى قَبَائِلِ الْيَهُودِ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مِنْ يَهُودِ بَنِى النَّضِير ، وَكَانَ يُقِيمُ فِى حِصْنٍ لَهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ ، كَمَا كَانَ يُقِيمُ غَيْرُهُ مِنْ يَهُودِ بَنِى قُرَيْظَةَ وَبَنِى النَّضِير .

وَكَانَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ هَذَا مِنْ أَشَدِّ الْيَهُودِ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْ أَكْثَرِهِمْ حِقْدًا عَلَى الرَّسُولِ ؛ حَتَّى إِنَّهُ عِنْدَمَا بَلَغَهُ خَبَرُ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ

بِبَدْرٍ ، وَخَبَرُ مَنْ قُتِلُوا مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ - ضَرَبَ كَفًّا عَلَى كَفٍّ ، وَصَارَ يَتَلَفَّتُ إِلَى مَنْ حَوْلَه وَيَصِيحُ فِي غَرَابَةٍ وَدَهْشَةٍ :

أَحَقٌّ هَذَا ؟ ! ! أَتَرَوْنَ مُحَمَّدًا قَتَلَ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يُسَمِّي هَذَانِ الرَّجُلانِ ؟ ! !

يَعْنِي زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ ؛ وَكَانَ الرَّسُولُ قَدْ عَهِدَ إِلَيْهِمَا تَبْشِيرَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِالظَّفَرِ ، فَعَادَا مُسْرِعَيْنِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَصَارَا يُبَشِّرَانِ النَّاسَ ، وَيَذْكُرَانِ أَسْمَاءَ الْقَتْلَى مِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ .

سَمِعَ كَعْبٌ كَلاَمَهُمَا ، فَزَادَ عَجَبُهُ وَاسْتِغْرَابُهُ ، وَأَخَذَ يَقُولُ :

هَؤُلاَءِ أَشْرَافُ الْعَرَبِ ، وَمُلُوكُ النَّاسِ ، وَاللهِ لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أَصَابَ هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ لَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ ظَاهِرِهَا .

فَلَمَّا تَأَكَّدَ لَدَيْهِ الْخَبَرُ ، وَتَيَقَّنَ مِنْ صِحَّتِهِ - لَمْ يَسْتَطِعْ عَلَى ذَلِكَ صَبْرًا ، فَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ بَاكِيًا نَائِحًا ، وَهُنَاكَ صَارَ يَقْرِضُ الشِّعْرَ فِي عَيْبِ الإِسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَيُنْشِدُهُ لِلتَّحْرِيضِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّعْرِيضِ بِهِمْ ، وَيَبْكِي أَصْحَابَ الْقَلِيبِ الَّذِينَ قُتِلُوا بِبَدْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ .

وَوَجَدَ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ ، وَيَتَجَاوَبُ شُعُورُهُ مَعَهُ ، وَيَقْرِضُ الشِّعْرَ وَيُنْشِدُهُ .

وَكَانَ هُنَاكَ مَنْ أَكْرَمَهُ وَأَضَافَهُ ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُثِيرَ قُرَيْشًا عَلَى مُحَمَّدٍ ، حَتَّى النِّسَاءَ ، فَإِنَّهُنَّ نَظَمْنَ الشِّعْرَ فِي رِثَاءِ قَتْلَى بَدْرٍ وَأَنْشَدْنَهُ ، وَأَثَرْنَ حِقْدَ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَأَوْجَعُوهُمْ بِالْهِجَاءِ الْمُرِّ ، وَحَرَّضُوا عَلَيْهِمْ تَحْرِيضًا شَدِيدًا أَهَاجَ الرِّجَالَ ، وَأَثَارَ فِيهِمُ الْحَمِيَّةَ وَالأَنَفَةَ ؛ وَتَرَكَ مَكَّةَ تَغْلِي كُلُّهَا ضِدَ مُحَمَّدٍ وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا .

وَلَمْ يُنَفِّسْ هَذَا كُلُّهُ عَمَّا بِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ مِنْ غِلٍّ وَحِقْدٍ وَحَسَدٍ ، فَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ يُشَبِّبُ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَتَغَزَّلُ فِيهِنَّ ، وَيَجْرَحُ كَرَامَتَهُنَّ ، وَيَنَالُ مِنْ شَرَفِهِنَّ .

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَسْتَطِعِ الْمُسْلِمُونَ صَبْرًا عَلَى ابْنِ الأَشْرَفِ ، فَأَحَلُّوا دَمَهُ ، وَأَجْمَعَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ عَلَى السَّيْرِ إِلَيْهِ لِقَتْلِهِ .

فَقَصَدَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ وَهُوَ سِلْكَانُ بْنُ سَلَامَةَ - وَيُعْرَفُ بِأَبِي نَائِلَةَ - وَكَانَ

عَلَى مَعْرِفَةٍ بِهِ ، فَجَلَسَ مَعَ كَعْبٍ يُجَاذِبُهُ الْحَدِيثَ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ :

لَقَدْ جِئْتُكَ فِى حَاجَةٍ أُرِيدُ ذِكْرَهَا لَكَ ، فَهَلْ تَكْتُمُ مَا أَقُولُهُ لَكَ ؟

قَالَ كَعْبٌ : نَعَمْ أَفْعَلُ . . . ! !

قَالَ أَبُو نَائِلَةَ : كَانَ قُدُومُ هَذَا الرَّجُلِ - يَعْنِى مُحَمَّدًا - بَلاَءً عَلَيْنَا ، فَقَدْ عَادَتْنَا بِسَبَبِهِ الْعَرَبُ ، وَرَمَتْنَا عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَاجْتَمَعَتْ جَمِيعُهَا ضِدَّنَا ، وَقَطَعَتْ عَنَّا سُبُلَ الْعَيْشِ حَتَّى ضَاعَ الْعِيَالُ ، وَجَهِدَتِ الأَنْفُسُ ، وَأَصْبَحْنَا وَقَدْ جَهِدْنَا وَجَهِدَ عِيَالُنَا .

فَقَالَ كَعْبٌ وَقَدْ سَرَّهُ مَقَالَةُ أَبِى نَائِلَةَ :

أَنَا ابْنُ الأَشْرَفِ ، أَمَا وَاللهِ قَدْ كُنْتُ أُخْبِرُكَ يَابْنَ سَلاَمَةَ أَنَّ الأَمْرَ سَيَصِيرُ إِلَى مَا تَقُولُ . . !

فَقَالَ أَبُو نَائِلَةَ : إِنِّى قَدْ أَرَدْتُ أَنْ تَبِيعَنِى وَتَبِيعَ أَصْحَابًا لِى عَلَى مِثْلِ رَأْيِى طَعَامًا ، وَنَرْهَنَ لَدَيْكَ مُقَابِلَ ذَلِكَ أَسْلِحَتَنَا ؛ فَهَلْ تَقْبَلُ ؟

فَقَالَ كَعْبٌ : نَعَمْ ، فَإِنَّ فِى قِيمَةِ السِّلاَحِ مَا يَكْفِى بِالْوَفَاءِ .

وعلَى هَذَا اتَّفَقَ أَبُو نَائِلَةَ مَعَ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ عَلَى أَنْ يَأْتِيَهُ وَأَصْحَابَهُ بِسِلاحِهِمْ سِرًّا مُقَابِلَ مَا يُعْطِيهِمْ مَا هُمْ فِى حَاجَةٍ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ ، وَابْنُ الأَشْرَفِ بِحِصْنِهِ وَقَدْ نَامَ بِجِوَارِ عَرُوسٍ لَهُ ، كَانَتْ قَدْ زُفَّتْ إِلَيْهِ حَدِيثًا - سَمِعَ صَوْتًا يُنَادِيهِ ، عَرَفَ فِيهِ صَوْتَ أَبِى نَائِلَةَ ، فَنَهَضَ مِنْ فِرَاشِهِ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِ ، فَحَاوَلَتْ عَرُوسُهُ مَنْعَهُ مِنْ ذَلِكَ خَوْفًا عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُ أَصَرَّ على الْخُرُوجِ إِلَى أَبِى نَائِلَةَ لِيَرَى مَا يُرِيدُ .

فَلَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِ رَآهُ فِى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَدْ حَمَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ سِلاحَهُ فَلَمْ يَرِبْهُ مِنْ أَمْرِهِمْ رَيْبٌ ، لِمَا سَبَقَ أَنِ اتَّفَقَ عَلَيْهِ مَعَ أَبِى نَائِلَةَ مِنْ أَنْ يَأْتُوهُ بِسِلاحِهِمْ مُقَابِلَ مَا سَوْفَ يُعْطِيهِمْ مِمَّا هُمْ فِى حَاجَةٍ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ .

وَعلى هَذَا سَارَ مَعَهُمْ دُونَ أَنْ يَتَوَجَّسَ مِنْهُمْ خِيفَةً حِينَمَا دَعَاهُ أَبُو نَائِلَةَ لِلتَّمَشِّى قَلِيلاً ، وَلِيَتَحَدَّثُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنَ اتِّفَاقٍ .

وَبَيْنَمَا هُمْ فِى سَيْرِهِمْ صَارَ أَبُو نَائِلَةَ يَتَخَلَّلُ بِيَدِهِ شَعْرَ رَأْسِ ابْنِ الأَشْرَفِ - وَكَانَ مُطَيَّبًا مُعَطَّرًا - ثُمَّ يُخْرِجُ يَدَهُ وَيَشَمُّهَا وَهُوَ يَقُولُ مُعْجَبًا :

مَا شَمَمْتُ طِيبًا أَعْطَرَ مِنْ هَذَا قَطُّ !

وَصَارَ أَبُو نَائِلَةَ يَفْعَلُ هَذَا بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ وَقَدِ اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ كَعْبٌ ، حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ على رَأْسِ كَعْبٍ فِى إِحْدَى الْمَرَّاتِ ، وَكَأَنَّهُ يَفْعَلُ مِثْلَ مَا كَانَ يَفْعَلُ ؛ فَإِذَا بِهِ يَأْخُذُ بِفَوْدَىْ رَأْسِهِ ، وَإِذَا بِهِ يُهِيبُ بِأَصْحَابِهِ أَنْ : اضْرِبُوا عَدُوَّ اللهِ .

فَتَكَاثَرَ رِفَاقُ أَبِى نَائِلَةَ على ابْنِ الأَشْرَفِ ، وَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُهُمْ ، وَمَا زَالُوا يَطْعَنُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ بِهَا حَتَّى مَاتَ .

وَبِجَلاَءِ يَهُودِ بَنِى قَيْنُقَاعَ ، وَبِمَقْتَلِ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ – بَاتَتِ الْيَهُودُ وَهِىَ تَخْشَى بَأْسَ الْمُسْلِمِينَ وَتَخَافُ عَزِيمَتَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ .

فى هَذِهِ الْفَتْرَةِ الَّتى شُغِلَ فِيهَا الرَّسُولُ بِمَا شُغِلَ بِهِ مِمَّا تَرَتَّبَ على انْتِصَارِ بَدْرٍ ، كَانَ هُنَاكَ أَيْضًا مَسَائِلُ أُخْرَى تَشْغَلُ النَّبِىَّ ، جَعَلَتْهُ يَخْرُجُ أَحْيَانًا فى غَزَوَاتٍ صَغِيرَةٍ سَرِيعَةٍ ، كَانَ يَخْرُجُ فِيهَا إِلَى بَعْضِ الْقَبَائِلِ ثمَّ يَعُودُ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَكَانَتْ هُنَاكَ أَيْضًا مُشْكِلَةُ أَسْرَى بَدْرٍ الَّذِينَ أَبْطَأَتْ قُرَيْشٌ فى فِدَائِهِمْ بَعْدَ مَا أَمَرَ الرَّسُولُ بِعَدَمِ قَتْلِهِمْ وَقَبُولِ الْفِدَاءِ فِيهِمْ ، وَذَلِكَ حَتَّى لاَ يَشْتَطَّ الْمُسْلِمُونَ فى طَلَبِ الْفِدَاءِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِمْ قَتْلُ الرِّجَالِ وَفَقْدُ الْمَالِ .

وَهٰكَذَا كَانَتْ حَيَاةُ النَّبِىِّ فِى هٰذِهِ الْفَتْرَةِ الْقَصِيرَةِ مُنْذُ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَيَاةَ جِهَادٍ وَنِضَالٍ وَحُرُوبٍ وَغَزَوَاتٍ فِى سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الإِسْلَامِ .

وَلَمْ تَكُنْ فَتَرَاتُ الْمُسَالَمَةِ الَّتِى كَانَتْ تَتَخَلَّلُ جِهَادَ مُحَمَّدٍ وَنِضَالَهُ فِى الْحُرُوبِ وَالْغَزَوَاتِ يَقْضِيها مُسْتَجِمًّا هَادِئًا ، بَلْ كَانَ يُجَاهِدُ جِهَادًا آخَرَ فِى تَوْحِيدِ صُفُوفِهِ ، وَكَانَ يُنَاضِلُ نِضَالاً فِى تَنْقِيَتِهَا وَتَصْفِيَتِهَا ، وَكَانَ يُقَوِّى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْفِيَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ وَالْمُقَرَّبِينَ مِنْهُ بِمَا يَزِيدُ فِى رِبَاطِ هٰذِهِ الصَّدَاقَةِ ، وَيُقَوِّى مِنْ وَشَائِجِ هٰذِهِ الْقُرْبَى .

وَمِنْ بَعْضِ مَا اتَّخَذَ النَّبِىُّ فِى سَبِيلِ تَحْقِيقِ ذٰلِكَ مَا كان يَنْهَجُ مِنْ طَرِيقِ الْمُصَاهَرَةِ .

كَانَ النَّبِىُّ قَدْ عَقَدَ على عَائِشَةَ بنت أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَهُوَ بِمَكَّةَ ، وَكَانَتْ لاَ تَزَالُ حَدَثَةً صَغِيرَةَ السِّنِّ ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالنَّبِىِّ وَبِالْمُسْلِمِينَ الأَمْرُ فِى الْمَدِينَةِ ، أَتَى أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِىِّ فَقَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَبْنِىَ بِأَهْلِكَ ؟!

أَجَابَ النَّبِىُّ : الصَّدَاقُ يَا أَبَا بَكْرٍ .

فَلَمَّا اجْتَمَعَ لِلنَّبِىِّ الصَّدَاقُ أَرْسَلَ بِهِ إِلَى أَبِى بَكْرٍ ، فَطَلَبَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ زَوْجَتِهِ أُمِّ رُومَانَ أَنْ تُعِدَّ عَائِشَةَ لِلذَّهَابِ بِهَا إِلَى بَيْتِ الرَّسُولِ . فَجَاءَتْ أُمُّ رُومَانَ عَائِشَةَ وَهِىَ تَلْعَبُ مَعَ صُوَيْحِبَاتٍ لَهَا فِى مَرْجُوحَةٍ قَدْ شُدَّتْ بَيْنَ نَخْلَتَيْنِ فَنَادَتْ عَلَيْهَا . فَلَمَّا لَبَّتْ عَائِشَةُ نِدَاءَ أُمِّهَا ، أَخَذَتْهَا هٰذِهِ مِنْ يَدِهَا فَغَسَلَتْ لَهَا وَجْهَهَا بِبَعْضِ الْمَاءِ ، وَمَشَطَتْ لَهَا شَعْرَهَا ، ثُمَّ دَخَلَتْ بِهَا إِلَى نِسْوَةٍ مِنْ نِسَاءِ الأَنْصَارِ كُنَّ فِى زِيَارَةٍ لَهَا ، فَأَصْلَحْنَ مِنْ شَأْنِهَا ، ثُمَّ صَحِبَتْهَا أُمُّهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ .

ثُمَّ تَزَوَّجَ النَّبِىُّ مِنْ حَفْصَةَ بنت الْفَارُوقِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَكَانَتْ زَوْجَةً لِخُنَيْسٍ أَحَدِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِى الإِسْلاَمِ ، فَلَمَّا مَاتَ عَنْهَا تَزَوَّجَهَا النَّبِىُّ ، وَبِذٰلِكَ رَبَطَ النَّبِىُّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَدِيقَيْهِ وَوَزِيرَيْهِ بِرِبَاطٍ مَتِينٍ مِنَ الْمُصَاهَرَةِ الْحَكِيمَةِ .

كَمَا جَعَلَ النَّبِىُّ نَفْسَهُ قُدْوَةً حَسَنَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِى أَلَّا يَتْرُكُوا الأَرَامِلَ اللَّوَاتِى

مَاتَ عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ فِى سَبِيلِ الْجِهَادِ ، وَخَلَّفْنَ لَهُنَّ مِنَ الأَوْلادِ مَا جَعَلَهُنَّ يَئِنُّونَ بِحَمْلِهِنَّ ، وَصِرْنَ عُرْضَةً لِلْبُؤْسِ وَهَدَفًا لِلْفَاقَةِ ؛ فَتَزَوَّجَ مِنْ زَيْنَبَ بِنْتِ خُزَيْمَةَ وَكَانَ قَدْ مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا فِى وَقْعَةِ بَدْرٍ ، وَكَانَتْ تُلَقَّبُ بِأُمِّ الْمَسَاكِينِ لِبِرِّهَا وَإِحْسَانِهَا .

وَزَوَّجَ النَّبِىُّ ابْنَتَهُ الصَّغِيرَةَ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ ، ابْنِ عَمِّهِ الْوَفِىِّ الَّذِى أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ الابْنِ .

وَكَانَ الرَّسُولُ حِينَ خَرَجَ إِلَى غَزْوَةِ بَدْرٍ قَدْ غَادَرَ الْمَدِينَةَ وابْنَتُهُ رُقَيَّةُ على فِرَاشِ الْمَرَضِ ، وَلِذٰلِكَ اسْتَخْلَفَ بِجَانِبِهَا زَوْجَهَا عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ لِيُعْنَى بِهَا .

فَلَمَّا أَتَى الْبَشِيرُ يُبَشِّرُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِانْتِصَارِ النَّبِىِّ وَأَصْحَابِهِ بِبَدْرٍ كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ حِينَ ذَاكَ يُسَوُّونَ التُّرَابَ عَلَى رُقَيَّةَ .

وَجَاءَ النَّبِىُّ فَحَزِنَ حُزْنًا شَدِيدًا عَلَى ابْنَتِهِ الَّتِى تَرَكَهَا وَهِىَ تُعَانِى الْمَرَضَ ، ثُمَّ عَادَ وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا الْمَوْتُ .

وَكَذَلِكَ بَلَغَ حُزْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ عَلَى زَوْجَتِهِ مَبْلَغًا شَدِيدًا ، فَلَمَّا وَاسَاهُ

النَّبِىُّ فِيهَا قَالَ عُثْمَانُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَهَلْ دَخَلَ عَلَى أَحَدٍ مَا دَخَلَ عَلَىَّ ؟! قُطِعَ الصِّهْرُ الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَكَ .

وَكَانَ النَّبِىُّ يُقَدِّرُ عُثْمَانَ وَيُحِبُّهُ وَيُعْجَبُ بِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَكَانَ يَقُولُ : عُثْمَانُ مِنْ أَشْبَهِ أَصْحَابِى بِى خُلُقًا .

لِذٰلِكَ أَسْرَعَ الرَّسُولُ إِلَى تَزْوِيجِ ابْنَتِهِ أُمِّ كُلْثُومَ مِنْ عُثْمَانَ ، فَحَلَّتْ مَحَلَّ أُخْتِهَا رُقَيَّةَ .

وَلَمَّا ذَهَبَ الرَّسُول لِيَزُورَ ابْنَتَهُ بَعْدَ زَوَاجِهَا سَأَلَهَا :

كَيْفَ رَأَيْتِ بَعْلَكِ يَا بُنَيَّة ؟

كَانَ جَوَابُ أُمِّ كُلْثُومَ : يَا أَبَتِ خَيْرُ بَعْلٍ وَأَفْضَلُهُ .

وَكَانَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ الرَّسُولِ حِينَ ذَاكَ لاَ تَزَالُ بِمَكَّةَ ، وَكَانَتْ زَوْجَةً لأَبِى الْعَاصِى بنِ الرَّبِيعِ ، وَكَانَ الْعَاصِى رَجُلاً كَرِيمًا أَمِينًا ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمَّا أَسَرَ الْمُسْلِمُونَ مَنْ أَسَرُوا مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ كَانَ الْعَاصِى ضِمْنَ الأَسَارَى الَّذِينَ أُسِرُوا .

وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِىِّ بِأَمْوَالٍ تَفْتَدِى أَسْرَاهَا ، وَبَعَثَتْ زَيْنَبُ كَذَلِكَ لِتَفْتَدِى زَوْجَهَا ، وَكَانَ فِيمَا بَعَثَتْ بِهِ زَيْنَبُ مِنْ مَالٍ قِلادَةٌ كَانَتْ لأُمِّهَا خَدِيجَةَ فَأَدْخَلَتْهَا بِهَا إِلَى أَبِى الْعَاصِى حِينَ زَفَّتْهَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَى مُحَمَّدٌ الْقِلادَةَ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً وَقَالَ لأَصْحَابِهِ : إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا ، وَتَرُدُّوا إِلَيْهَا قِلادَتَهَا ، فَافْعَلُوا .

فَقَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ .

وَانْصَرَفَ أَبُو الْعَاصِى إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ النَّبِىُّ عَلَيْهِ وَعْدًا بِأَنْ يُسَرِّحَ زَيْنَبَ وَيُرْسِلَهَا إِلَيْهِ ، إِذْ فَرَّقَ الإِسْلامُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ، وَكَانَ أَبُو الْعَاصِى قَدْ أَلَحَّ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنْ قُرَيْشٍ فِى أَنْ يَتْرُكَ زَيْنَبَ كَمَا تَرَكَ عُتْبَةُ وَعُتَيْبَةُ ابْنَا أَبِى لَهَبٍ ابْنَتَىِ الرَّسُولِ : رُقَيَّةَ وَأُمَّ كُلْثُومٍ مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ أَبَا الْعَاصِى كَانَ يَسْتَمْسِكُ بِزَيْنَبَ وَهُوَ يَقُولُ :

لاَ أُفَارِقُ صَاحِبَتِى وَلاَ أَسْتَعِيضُ عَنْهَا بِأَيَّةِ امْرَأَةٍ أُخْرَى مِنْ قُرَيْشٍ !

فَلَمَّا أُسِرَ طَلَبَ مِنْهُ النَّبِىُّ أَنْ يَتْرُكَ زَيْنَبَ إِذْ لاَ يَصِحُّ زَوَاجُ بَيْنَ مُسْلِمَةٍ

وَمُشْرِكٍ ، وَأَعْلَمَهُ بِأَنَّهُ سَيُرْسِلُ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ وَصَاحِبًا مَعَهُ لِيَتَسَلَّمَاهَا مِنْ مَكَانٍ عَيَّنَهُ لَهُ بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَّةَ ، فَقَبِلَ أَبُو الْعَاصِى ذَلِكَ ، وَوَعَدَ النَّبِىَّ بِأَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِزَيْنَبَ .

فَلَمَّا عَادَ إِلَى مَكَّةَ عَرَّفَ زَيْنَبَ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهَا مِنْ وَعْدٍ ، وَطَلَبَ مِنْ أَخِيهِ كِنَانَةَ بْنِ الرَّبِيعِ أَنْ يَصْحَبَهَا وَيَخْرُجَ بِهَا مِنْ مَكَّةَ سِرًّا مِنْ قُرَيْشٍ .

وَبَيْنَمَا زَيْنَبُ تُعِدُّ نَفْسَهَا وَتَجْمَعُ حَوَائِجَهَا لِمُغَادَرَةِ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ جَاءَتْهَا هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجَةُ أَبِى سُفْيَانَ فَقَالَتْ لَهَا : يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنِى مِنْ أَنَّكِ تُرِيدِينَ اللَّحَاقَ بِأَبِيكِ ؟

وَعَجِبَتْ زَيْنَبُ مِنْ تَسَرُّبِ خَبَرِ خُرُوجِهَا إِلَى أَبِيهَا بِرَغْمِ تَكَتُّمِهِ ، وَخَافَتْ إِنْ هِىَ أَمَّنَتْ عَلَى قَوْلِ هِنْدٍ أَنْ يَنَالَهَا وَيَنَالَ مُرَافِقِيهَا خَطَرٌ ، لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْ هِنْدٍ مِنْ عَدَائِهَا الشَّدِيدِ لِلنَّبِىِّ ، فَسَكَتَتْ زَيْنَبُ وَلَمْ تُؤَيِّدِ الْخَبَرَ ، وَلَمْ تُكَذِّبْ .

وَقَالَتْ هِنْدُ : أَىِ ابْنَةَ عَمٍّ ! ! إِنْ كَانَ لَكِ حَاجَةٌ بِمَتَاعٍ مِمَّا يَرْفُقُ بِكِ فِى

سَفَرِكِ ، أَوْ بِمَالٍ تَتَبَلَّغِينَ بِهِ إِلَى أَبِيكِ ، فَإِنَّ عِنْدِى حَاجَتَكِ ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ بَيْنَ النِّسَاءِ مَا بَيْنَ الرِّجَالِ .

وَبِرَغْمِ مَا شَعَرَتْ بِهِ زَيْنَبُ مِنْ لَهْجَةِ الصِّدْقِ فِى كَلاَمِ هِنْدٍ فَإِنَّهَا ظَلَّتْ عَلَى خَشْيَتِهَا مِنْهَا فَلَمْ تُصَرِّحْ لَهَا بِشَىْءٍ .

فَلَمَّا تَجَهَّزَتْ زَيْنَبُ لِلسَّفَرِ ، أَحْضَرَ لَهَا كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ذَاتَ صَبَاحٍ بَعِيرًا نَصَبَ لَهَا عَلَيْهِ هَوْدَجًا أَرْكَبَهَا فِيهِ ، ثُمَّ خَرَجَ بِهَا مُغَادِرًا مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ تَوَشَّحَ قَوْسَهُ وَكِنَانَتَهُ لِيَتَّقِىَ بِهِمَا مَخَاطِرَ الطَّرِيقِ .

وَأَحَسَّتْ قُرَيْشٌ بِخُرُوجِ زَيْنَبَ ، وَتَكَلَّمَ بِذَلِكَ رِجَالُهَا ، فَأَجْمَعَ نَفَرٌ مِنْهُمْ عَلَى اللَّحَاقِ بِهَا لِرَدِّهَا نِكَايَةً بِمُحَمَّدٍ ، وَخَرَجَ فِى سَبِيلِ ذَلِكَ عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَأَدْرَكُوهَا هِىَ وَكِنَانَةَ بِذِى طُوًى .

وَأَسْرَعَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اسْمُهُ هَبَّارُ بْنُ الأَسْوَدِ إِلَى هَوْدَجِ زَيْنَبَ فَكَشَفَ أَسْتَارَهُ عَنْهَا ، وَرَفَعَ رُمْحَهُ إِلَيْهَا يُرْهِبُهَا بِهِ وَيُرَوِّعُهَا وَيَطْلُبُ إِلَيْهَا الْعَوْدَةَ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ ، فَرِيعَتْ زَيْنَبُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الرَّوْعِ ، وَبَلَغَ بِهَا الاضْطِرَابُ مَبْلَغًا جَعَلَهَا

وَهِيَ فِي الأَشْهُرِ الأُولَى مِنْ حَمْلِهَا تُجْهِضُ هَذَا الْحَمْلَ ، عِنْدَئِذٍ وَقَفَ دُونَهَا حَمُوهَا كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ فَنَثَرَ كِنَانَتَهُ وَصَاحَ :

وَاللهِ لاَ يَدْنُو مِنِّي رَجُلٌ إِلاَّ وَضَعْتُ فِيهِ سَهْمًا .

فَتَأَخَّرَ عَنْهُ الرِّجَالُ خَشْيَةَ غَضْبَتِهِ ، وَتَقَدَّمَ أَبُو سُفْيَانَ يَصِيحُ بِكِنَانَةَ :

يَاأَيُّهَا الرَّجُلُ ، كُفَّ عَنَّا نَبْلَكَ حَتَّى نُكَلِّمَكَ .

فَأَرْخَى كِنَانَةُ قَوْسَهُ وَهُوَ يَقُولُ :

مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ يَابْنَ حَرْبٍ ؟

فَاقْتَرَبَ أَبُو سُفْيَانَ مِنْ كِنَانَةَ حَتَّى وَقَفَ إِزَاءَهُ وَقَالَ لَهُ :

يَابْنَ الرَّبِيعِ ، إِنَّكَ لَمْ تُصِبْ فِيمَا فَعَلْتَ ، خَرَجْتَ بِالْمَرْأَةِ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ عَلاَنِيَةً وَقَدْ عَرَفْتَ مُصِيبَتَنَا وَنَكْبَتَنَا وَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا مِنْ مُحَمَّدٍ ، فَيَظُنُّ النَّاسُ إِذْ خَرَجْتَ بِابْنَتِهِ عَلاَنِيَةً مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا أَنَّ ذَلِكَ عَنْ ذُلٍّ أَصَابَنَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ ضَعْفٌ مِنَّا وَوَهْنٌ ، وَلَعَمْرِي مَا لَنَا بِحَبْسِهَا مِنْ أَبِيهَا مِنْ حَاجَةٍ ، وَلَكِنِ ارْجِعْ بِالْمَرْأَةِ حَتَّى إِذَا هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ وَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنْ قَدْ رَدَدْنَاهَا ،

فَسَلَّهَا سِرًّا وَأَلْحَقَهَا بِأَبِيهَا .

وَعَمِلَ كِنَانَةُ بِمَشُورَةِ أَبِى سُفْيَانَ فَعَادَ إِلَى مَكَّةَ بِزَيْنَبَ ، حَتَّى إِذَا سَكَتَتِ الأَصْوَاتُ عَنْهَا خَرَجَ بِهَا لَيْلاً حَتَّى بَلَغَ بِهَا الْمَكَانَ الَّذِى كَانَ يَنْتَظِرُ بِهِ زَيْنَبَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَصَاحِبُهُ ، فَأَسْلَمَ كِنَانَةُ زَيْنَبَ إِلَيْهِمَا ، فَصَحِبَاهَا حَتَّى أَوْصَلاهَا إِلَى أَبِيهَا بِالْمَدِينَةِ .

بَيْنَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِى فَرَحٍ وَسُرُورٍ لِمَا نَالُوا مِنَ النَّصْرِ فِى غَزْوَةِ بَدْرٍ.
كَانَتْ قُرَيْشٌ فِى حُزْنٍ دَائِمٍ وَهَمٍّ مُقِيمٍ لِهَزِيمَتِهَا الْمُنْكَرَةِ، وَلِقَتْلِ سَادَتِهَا وَأَشْرَافِهَا وَكِبَارِ رِجَالِهَا عَلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ.

كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ خَرَجَ رِجَالُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ بِبَدْرٍ لاَ يَشُكُّونَ قَطُّ فِى أَنَّهُمْ هُمُ الْمُنْتَصِرُونَ الْغَالِبُونَ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقُوَّةِ عَتَادِهِمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمُ النَّذِيرُ - الْحَيْسُمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْخُزَاعِى - يَحْمِلُ لَهُمْ خَبَرَ

مَا أَصَابَهُمْ ، وَيُعَدِّدُ لَهُمْ أَسْمَاءَ مَنْ قُتِلُوا مِنْ أَشْرَافِهِمْ لَمْ تَسْتَطِعْ عُقُولُهُمْ أَنْ تُصَدِّقَهُ أَوْ تَسْتَسِيغَ مَا يَحْمِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ خَبَرٍ ، بَلِ اتَّهَمُوا الْحَيْسُمَانَ فِى عَقْلِهِ ، وَرَمَوْهُ بِالْعَتَهِ وَالْجُنُونِ ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ هَازِئًا - وَكَانَ يَجْلِسُ بِالْحِجْرِ حِينَ أَتَى الْحَيْسُمَانُ يَقُولُ مَا يَقُولُ :

وَاللهِ لاَ يُعْقَلُ هَذَا . . ! سَلُوهُ عَنِّى ! !

فَسَأَلَ الرِّجَالُ الْحَيْسُمَانَ : وَمَا جَرَى لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ ؟

فَأَجَابَ الْحَيْسُمَانُ - وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّهُمْ لاَ يُصَدِّقُونَ قَوْلَهُ :

هَا هُوَ ذَاكَ جَالِسًا فِى الْحِجْرِ ، قَدْ وَاللهِ رَأَيْتُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ حِينَ قُتِلاَ.وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَبُو لَهَبٍ أَنْ يَصْمُدَ لِهَوْلِ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ حِينَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ ، فَخَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ يَجُرُّ قَدَمَيْهِ جَرًّا ، يَلْتَمِسُ مَنْ يُؤَكِّدُ لَهُ مَا سَمِعَ ؛ فَلَمَّا كَانَ بِحُجْرَةٍ بِجِوَارِ زَمْزَمَ يَجْلِسُ بِهَا أَبُو رَافِعٍ مَوْلَى أَخِيهِ الْعَبَّاسِ ، وَكَانَ رَجُلاً ضَعِيفًا يَقُومُ بِنَحْتِ الأَقْدَاحِ - جَلَسَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى جِوَارِ أَبِى رَافِعٍ وَبِهِ مِنَ الْهَمِّ مَا بِهِ ، وَبَيْنَمَا هُوَ بِمَجْلِسِهِ هَذَا أَقْبَلَ مَنْ يَقُولُ :

هَذَا الْمُغِيرَةُ بْنُ الْحَارِثِ قَدْ قَدِمَ .

وَكَانَ الْمُغِيرَةُ مِمَّنْ شَهِدُوا بَدْرًا ، فَنَادَى أَبُو لَهَبٍ عَلَى الْمُغِيرَةِ فِى لَهْفَةٍ وَاسْتِعْجَالٍ :

هَلُمَّ إِلَىَّ ، فَعِنْدَكَ - لَعَمْرِى - الْخَبَرُ .

فَجَاءَ الْمُغِيرَةُ فَجَلَسَ إِلَى عَمِّهِ أَبِى لَهَبٍ ، وَالْتَفَّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ يَسْمَعُونَ أَخْبَارَهُ ، فَسَأَلَهُ أَبُو لَهَبٍ : يَا بْنَ أَخِى ؛ أَخْبِرْنِى كَيْفَ كَانَ أَمْرُكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ؟

قَالَ الْمُغِيرَةُ : وَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ لَقِينَا الْقَوْمَ فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَافَنَا يَقْتُلُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا ، وَيَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا ، وَايْمُ اللهِ - مَعَ ذَلِكَ - مَا لُمْتُ أَحَدًا ، فَقَدْ لَقِينَا رِجَالاً بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ تَبَدَّوْا أَمَامَنَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَاللهِ مَا تُبْقِى شَيْئًا ، وَلاَ يَقُومُ لَهَا شَىْءٌ !

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَتَمَالَكْ أَبُو رَافِعٍ أَنْ قَالَ :

تِلْكَ وَاللهِ الْمَلاَئِكَةُ !

وَلَمْ يَكَدْ أَبُو رَافِعٍ يَلْفِظُ مَا لَفَظَ بِهِ ، حَتَّى كَانَتْ يَدُ أَبِى لَهَبٍ تَهْوِى عَلَى وَجْهِهِ بِلَطْمَةٍ شَدِيدَةٍ مُوجِعَةٍ .

فَهَبَّ أَبُو رَافِعٍ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَمَا كَانَ مِنْ أَبِى لَهَبٍ إِلاَّ أَنْ حَمَلَ أَبَا رَافِعٍ وَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ ، ثُمَّ انْقَضَّ عَلَيْهِ يُوسِعُهُ ضَرْبًا ، وَيُشْبِعُهُ لَكْمًا ، وَيُنَفِّسُ فِيهِ مَا بِنَفْسِهِ مِنْ غِلٍّ وَحِقْدٍ وَمَرَارَةٍ ، فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَى أَبِى رَافِعٍ فَأَنْقَذُوهُ مِنْ بَيْنِ يَدَىْ أَبِى لَهَبٍ الَّذِى كَانَ يَتْفِضُ غَضَبًا .

وَانْصَرَفَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى دَارِهِ مَهْمُومًا حَزِينًا ، فَمَا لَبِثَ أَنْ أُصِيبَ فِى لَيْلَتِهِ بِمَرَضٍ لَمْ يُمْهِلْهُ إِلاَّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ مَاتَ .

وَتَأَكَّدَ لَدَى قُرَيْشٍ فَدَاحَةُ مَا أَصَابَهَا فِى الرِّجَالِ بِبَدْرٍ ، فَظَلَّتْ تَنُوحُ وَتَبْكِى عَلَى قَتْلاَهَا شَهْرًا ، ثُمَّ كَفَّتْ عَنِ النَّوْحِ وَحَرَّمَتْ عَلَى نَفْسِهَا الْبُكَاءَ حَتَّى لاَ يَشْمَتَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَإِلَى أَنْ تَنَالَ ثَأْرَهَا مِنْهُمْ .

وَهَكَذَا قَيَّضَ اللهُ أَيْضًا لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَذَابِ مَا جَعَلَهُمْ يَكْتُمُونَ مَا بِصُدُورِهِمْ مِنْ حُرْقَةٍ وَمَا بِقُلُوبِهِمْ مِنْ لَوْعَةٍ ، هُمْ فِى حَاجَةٍ إِلَى التَّنْفِيسِ عَنْ

أَنْفُسِهِمْ بِسَبَبِهِمَا بِالْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ حَتَّى لَكَانَ الرَّجُلُ الَّذِى أَصَابَتْهُ فِى أَهْلِهِ مُصِيبَةٌ ، يَتَحَرَّقُ شَوْقًا إِلَى أَنْ يَنْدُبَ وَيَبْكِى فَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْدُبَ وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْكِىَ .

فَكَانَ الأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ قَدْ أُصِيبَ فِى ثَلاَثَةٍ مِنْ وَلَدِهِ ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَبْكِيَهُمْ وَيَنْدُبَهُمْ وَيُعْوِلَ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا حَرَّمَتْ قُرَيْشٌ الْبُكَاءَ سَكَتَ عَلَى مَضَضٍ وَصَدْرُهُ يَلْتَهِبُ وَقَلْبُهُ يَحْتَرِقُ .

وَبَيْنَمَا هُوَ أَرِقٌ فِى هَدْأَةِ لَيْلَةٍ لاَ يَجِدُ النَّوْمُ إِلَى جَفْنَيْهِ سَبِيلاً ، طَرَقَ سَمْعَهُ صَوْتُ امْرَأَةٍ تَنُوحُ وَتَبْكِى ، وَكَانَ الأَسْوَدُ قَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ ، فَقَامَ إِلَى غُلاَمٍ لَهُ فَأَيْقَظَهُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ لَهُ :

قُمْ فَانْظُرْ : هَلْ أُحِلَّ النَّحِيبُ ؟ وَهَلْ بَكَتْ قُرَيْشٌ عَلَى قَتْلاَهَا ؟! لَعَلِّى أَبْكِى عَلَى أَوْلاَدِى ، فَإِنَّ جَوْفِى قَدِ احْتَرَقَ ! !

فَخَرَجَ الْغُلاَمُ ثُمَّ عَادَ لِيَقُولَ لِلأَسْوَدِ : إِنَّ قُرَيْشًا لَمْ تُبِحِ الْبُكَاءَ ! وَإِنَّمَا هِىَ امْرَأَةٌ تَبْكِى عَلَى بَعِيرٍ ضَلَّ لَهَا :

فَقَالَ الأَسْوَدُ :

أَتَبْكِي أَنْ أَضَلَّ لَهَا بَعِيرٌ وَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّوْمِ السُّهُودُ

فَلاَ تَبْكِي عَلَى بَكْرٍ وَلَكِنْ عَلَى بَدْرٍ تَقَاصَرَتِ الْجُدُودُ

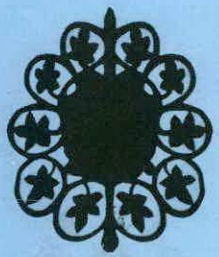

رقم الإيداع	١٩٩٤/٩٧٥٤	
الترقيم الدولى	977-02-4766-9	ISBN

٧/٩٤/٢١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)